وأدلوا بحجتكم إن كان لكم شيءٌ من ذلك. ولمّا كان القوم ليس لديهم أي برهان فإنّ المصطفى ﷺ يُطلب منه أن يقول لهم : هذا القرآن الكريم الذى هو ذكر أمتى المسلمة لله ربّ العالمين، وهذه الكتب السّماوية السّابقة الّتي هي ذكر الأمم الّتي بعث الله تعالى فيها النّبيّين، ليس في أيٍ منها سوى الدّعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة. بل الحقيقة أنّ أكثر أولئك المشركين لا يعلمون الحقّ فهم عنه معرضون وعلى الباطل مقبلون. ويؤكّد السّياق هذا المعنى بأنّ الله تعالى ما أرسل من قبل محمّد ﷺ من رسولٍ إلاّ أوحى الله تعالى إليه أنّه لا إله إلا الله تعالى وحده لا شريك له فاعبدوه أيها النّاس وحده دون سواه.

ومن الحماقات الّتي ارتكبها المشركون أنّهم قالوا إنّ الرّحمن قد اتّخذ ولداً. ويبادر السّياق إلى تنزيهه عزّ وجلّ عن هذا الافتراء ويقرّر أنّ الملائكة الّتي يزعم المشركون أنّهم بنات الله تعالى هم عبادٌ لله تعالى مكرمون عنده عزّ وجلّ. إنّهم لا يسبقونه عزّ وجلّ بالقول وهم بأمره تعالى يعملون. وإنّ الله تعالى الّذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء يعلم ما سوف يقومون به من أعمال وأقوال مستقبلاً، وما قاموا به من قبل من أعمالٍ وأقوال، ولا يشفعون إلاّ لمن رضي الله تعالى عنه بأن شهد في الدّنيا أنّه لا إله إلاّ الله، وهم من خشيته عزّ وجلّ مشفقون خائفون وجلون. ولو فُرِض أنّ أحداً منهم قال إنّه إلهٌ من دون الله تعالى، وهذا مستحيل، لأنّ الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فإنّ ذلك القائل يجزيه الله تعالى جهنم. كذلك يجزى الله تعالى الظّالمين المشركين الّذين يضعون العبادة في غير موضعها.

(٣)

(رغم آيات الله تعالى الكُثْر في السّماوات والأرض يصرّ الكافرون على كفرهم واستهزائهم والإقبال على الدّنيا والإدبار عن الآخرة)

الآيات (٣٠ ـ ٤٧)

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا
مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ
رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ
ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

أو لم ير الّذين كفروا : أو لم ينظر هؤلاء الّذين كفروا بالله بأبصار قلوبهم فيروا بها ويعلموا(١).

كانتا رتقاً: الرّتق الضّمّ والالتحام خِلْقةً كان أم صنعة، قال تعالى ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ أي منضمّتين(٢). وملتصقتين(٣). ووحّد الرّتق وهو من صفة السماء والأرض وقد جاء بعد قوله : كانتا، لأنّه مصدر، مثل قول : الزَّور والصّوم والفطر(٤).

ففتقناهما: فصدعناهما وفرجناهما. ثمّ اختلف أهل التأويل في معنى وصف الله السّماوات والأرض بالرّتق، وكيف كان الرّتق، وبأيّ معنى فُتق. فقال

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «رتق» ١٨٧

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤ والزَّور بالفتح الزّائر انظر القاموس «زور»

بعضهم: عَنَى بذلك أنّ السّماوات والأرض كانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما بالهواء[1]. وقال آخرون بل عنى بذلك أنّ السّماوات كانت رتقاً لا تمطر. والأرض كذلك رتقاً لا تنبت، ففتق السّماء بالمطر والأرض بالنّبات[2]. قال عكرمة: وهو قوله[3]: ﴿والسّماء ذات الرّجع. والأرض ذات الصّدع﴾[4]. والرّجع المطر لعوده كلّ حين. والصّدع الشّقّ عن النبات[5]. إلى غير ذلك من آراء. «قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصّواب قول من قال: معنى ذلك: أو لم ير الّذين كفروا أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقاً من المطر والنّبات، ففتقنا السماء بالغيث والأرض بالنّبات. وإنّما قلنا ذلك أولى بالصّواب في ذلك لدلالة قوله: ﴿وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيّ﴾ على ذلك، وأنّه جلّ ثناؤه لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصّفة إلاّ والّذي تقدّمه من ذكر أسبابه»[6]. وإنّما قيل: كانتا، مع أنّ السّماوات جمع لأنّهما صنفان، فالسّماوات نوعٌ والأرض آخر[7].

وجعلنا في الأرض رواسي: وجعلنا في الأرض جبالاً راسية. والرّواسي جمع راسية وهي الثّابتة[8].

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٥

(٣) سورة الطّارق ١١ و١٢

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٥

(٥) الجلالين

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١٥

(٧) انظر تفسير الطّبري ١٧/ ١٥

(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ١٦

أن تميد بكم: لئلاّ تميد بالنّاس أي تضطرب وتتحرّك[١].

وجعلنا فيها فجاجاً سبلا: وجعلنا في الأرض[٢]. فجاجا. والفجاج جمع الفَجّ بفتح الفاء، والفجّ شقّة يكتنفها جبلان، ويستعمل في الطّريق الواسع[٣]. والمسالك[٤]. سبلاً: أي طرقاً وهي جمع السّبيل[٥]. والسّبيل الطريق الّذي فيه سهولة[٦].

محفوظاً : حفظناها من كلّ شيطانٍ رجيم[٧].

في فَلَك : الفَلَك : مجرى الكواكب[٨].

يسأل السّياق الّذين كفروا في إنكار : أعموا ولم يروا بعين البصيرة أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقاً، فلا السّماء تمطر ولا الأرض تنبت، ففتقهما الله تعالى بالماء في حقّ السّماء وبالنّبات في حقّ الأرض، أعموا ولم يروا بعين البصيرة أنّ الله سبحانه وتعالى جعل من الماء كلّ شيءٍ حيٍّ من نباتٍ وحيوانٍ وإنسان. أفلا يعتبرون فيؤمنون بالله تعالى ويفردونه عزّ وجلّ بالعبادة ويتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّيّ والنّور الّذي أنزله الله تعالى معه.

ومن البيّن أنّ السّياق يتحدّث عن بعض الخطوط الدّقيقة في السماوات والأرض بعد الحديث عن الخطوط العريضة. ومن البيّن كذلك أنّ الآية الكريمة

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٧

(٢) انظر تفسير الطّبري ١٧/ ١٦

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فج» ٣٧٣

(٤) انظر تفسير الطّبرى ١٧/ ١٦

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١٦

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سبل» ٢٢٣

(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ١٦

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فلك» ٣٨٥

تدور حول الماء الّذي يتبخّر بإرادة الله تعالى ثمّ يتكثّف في طبقات الجوّ العليا ثمّ ينزل ماءً مرّةً أخرى يُحيى الله تعالى به الأرض الميتة. وإذا كان ربّ العزة والجلال قد خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام، حظّ الأرض منها أربعة أيّام، فإنّ حديث الآية الكريمة عن الماء يتعلّق بتهيئة ربّ العزة والجلال الأرض لسُكنى الخلق، في اليومين الأخيرين من الأيّام الأربّعة الخاصّة بالأرض، فقد تعلّق اليومان الأوّلان بعمليّة خلق الأرض دون دحو وتهيئة للسُّكنى. ومن الآيات الكريمات الّتي تحدّثت بالتّفصيل عن توزيع الأيّام السّتّة الآيات الكريمات ٩ ـ ١٢ من سورة فصّلت.

وكذلك جعل الله سبحانه وتعالى في الأرض جبالاً راسيةً لئلاّ تضطرب وتتحرّك بمن عليها، وجعل فيها بين الجبال طرقاً واسعةً سهلةً لعلّ النّاس يهتدون في سفرهم بتلك العلامات ولعلّهم يهتدون إلى الشكر لله تعالى على نعمه الجليلة بالإيمان.

وكذلك جعل الله تعالى السّماء سقفاً للأرض محفوظاً من السّقوط بقدرة الله تعالى، ومن الشّياطين ان يسترقوا السّمع. ومع كلّ هذه الدّلائل في السّماء على قدرة الله تعالى فإنّ المشركين معرضون عن تلك الآيات. جاء في سورة الحجّ(١). قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ألم تَرَ أنّ الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه إنّ الله بالنّاس لرءوفٌ رحيم﴾ وجاء في سورة الصّافات(٢). قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿إنّا زيّنا السّماء الدّنيا بزينة الكواكب. وحفظاً من كلّ شيطان مارد. لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ويُقْذَفون من كلّ جانب. دحوراً ولهم عذابٌ واصب إلاّ من خَطِف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب﴾ وجاء في سورة يوسف(٣). قول الحق جلّ وعلا : ﴿وكأيّن من آيةٍ في السماوات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون﴾.

(١) الآية ٦٥

(٢) الآيات (٦ ـ ١٠)

(٣) الآية ١٠٥

والله سبحانه وتعالى هو وحده الّذي خلق الليل وجعله مظلماً وسكناً، وخلق النّهار وجعله مضيئاً ومعاشاً، وخلق الشمس وجعلها ضياءً ودفئاً، وخلق القمر وجعله نوراً وميقاتاً. لقد جعل الله تعالى كلاًّ من هذه المخلوقات يسبح في فَلَكه، ويجرى في مداره. قال عزّ من قائل في سورة يس[1]. : ﴿وآيةٌ لهم الّليلُ نَسلَخُ منه النّهار فإذا هم مظلمون. والشّمس تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقَمَرَ قدّرناه منازلَ حتى عاد كالعُرجون القديم. لا الشّمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الّليل سابق النّهار وكلٌّ في فلكٍ يسبحون﴾.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ
ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ
ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾
وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ

(١) الآيات ٣٧ ـ ٤٠

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ
الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾
قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

ونبلوكم : ونختبركم أيّها النّاس(١).

بالشّرّ والخير فتنة : عن ابن عبّاس : نبتليكم بالشّرّ والخير فتنةً بالشدّة والرّخاء والصّحة والسّقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطّاعة والمعصية والهدى والضّلال(٢). فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط(٣). وجُعلَت الفتنة كالبلاء في أنّهما يستعملان فيما يُدْفع إليه الإنسان من شدّةٍ ورخاء وهما في الشّدّة أظهر معنًى وأكثر استعمالاً(٤)

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٧

(٢) تفسير ابن كثير ١٧٨/٣

(٣) تفسير ابن كثير ١٧٨/٣

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فتن» ٣٧٢

إن يتخذونك إلاّ هزوا: ما يتخذونك إلاّ سخريّا[١].

أهذا الّذي يذكر آلهتكم : يذكر آلهتكم بسوءٍ ويعيبها تعجّباً منهم من ذلك[٢].

وهم بذكر الرّحمن هم كافرون: وهم بذكر الرّحمن، الّذي خلقهم وأنعم عليهم ومنه نفعهم وبيده ضرّهم وإليه مرجعهم، بما هو أهله منهم أن يذكروه به كافرون. والعرب تضع الذّكر موضع المدح والذّمّ فيقولون سمعنا فلاناً يذكر فلاناً وهم يريدون سمعناه يذكره بقبيح ويعيبه . وسمعناه يذكره بخير[٣].

خُلق الإنسان من عجل: خُلق الإنسان يعنى آدم من عجل[٤]بمعنى العجلة[٥]والعجلة طلب الشّيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو من مقتضى الشّهوة فلذلك صارت مذمومةً في عامّة القرآن حتّى قيل: العجلة من الشّيطان[٦] قال تعالى : ﴿خُلق الإنسان من عجل﴾ وذلك تنبيهٌ على أنّه لا يتعرّى من ذلك وأنّ ذلك أحد الأخلاق الّتي ركّب عليها، وعلى ذلك قال[٧] ﴿وكان الإنسان عجولا﴾[٨].

سأريكم آياتي فلا تستعجلون: سأريكم نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني فلا تستعجلون[٩].

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٩

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٩

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٩

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٨

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١٩

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «عجل» ٣٢٣

(٧) سورة الإسراء ١١

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «عجل» ٣٢٣

(٩) تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٩

حين لا يكفّون عن وجوههم النّار: حين لا يَدْفَعون[1].

بغتة : فجأة[2].

فتبهتهم : فتحيّرهم[3] كالرجل يبهت الرّجل في وجهه بالشّيء حتّى يبقى المبهوت كالحيران منه[4].

فحاق : فوجب ونزل[5].

قل من يكلؤكم باللّيل والنّهار من الرّحمن : من يحفظكم ويحرسكم باللّيل إذا نمتم وبالنّهار إذا تصرّفتم. من الرّحمن : يقول : من أمر الرّحمن إن نزل بكم ومن عذابه إن حلّ بكم[6].

بل هم عن ذكر ربّهم : بل هم عن ذكر مواعظ ربّهم وحججه الّتي احتجّ بها عليهم[7] وعن القرآن[8].

أم لهم آلهةٌ تمنعهم من دوننا: استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ. أي ألهم آلهةٌ تمنعهم وتكلؤهم غيرنا[9].

ولا هم منّا يصحبون : يقال : أصحب فلانٌ فلاناً إذا جُعِل صاحباً له .

---

(١) الجلالين

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٢ وتفسير ابن كثير ٣/ ١٧٩

(٣) الجلالين

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٢

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٢

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٢

(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٢

(٨) الجلالين

(٩) تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٩

قال : ﴿ولا هم مِنّا يُصْحَبون﴾ أي لا يكون لهم من جهتنا ما يصحبهم من سكينة ورَوْحٍ وتوفيق ونحو ذلك ممّا يُصْحِبه عزّ وجلّ أولياءه(١).

نفحة : نصيبٌ وحظّ(٢) وله نفحةٌ طيّبةٌ أي هُبوبٌ من الخير. وقد يستعار ذلك للشّرّ : ﴿ولئن مسّتهم نفحةٌ من عذاب ربّك﴾(٣).

القسط : العدل(٤).

مثقال: وزن(٥).

يخاطب الحقّ عزّ وجلّ المصطفى ﷺ الّذي تربّصّ به المشركون ريب المنون ويقول له : إنّا ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، من المرسلين ومن غير المرسلين. أفإن متّ يا محمّد كما تمنّى المشركون هل هم سوف يخلدون ويتقلّبون في نعيم الدّنيا إلى غير نهاية. ويجيب السّياق على السّؤال الإنكاري : إنّ كلّ نفس ذائقة الموت ثمّ إلى الله تعالى نرجع جميعاً . أمّا ما نصادفه في هذه الدّنيا من شرّ وخير، ومن نقمة ونعمة، من مرضٍ وصحّة، من فقرٍ وغنىً، من خمولٍ ونباهة، وما إلى ذلك، فإنّه امتحانٌ من الله تعالى لنا. إنّ المطلوب من المؤمن مع الشّرّ أن يصبر كي يثاب وألاّ يجزع، ومع الخير أن يشكر كي يثاب وألاّ يكفر، وإذا كان الإيمان شطرين، شطر الشّكر مع النّعماء والسّرّاء، وشطر الصّبر مع البأساء والضّرّاء، فإنّ الشّكر والصّبر متكاملان بل متداخلان، لأنّ الصّبر ليس مقصوراً على البلاء إنّما يشمل النّعماء بالشّكر لله تعالى عليها، ومن مقوّمات الشّكر الصّبر على الطّاعات وعن المعاصي.

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «صحب» ٢٧٥

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٤

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نفح» ... ٥

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٤

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٥

وبالإضافة إلى تمنّى المشركين هلاك المصطفى ﷺ على نحو ما تبيّن هم يلجأون إلى سلاح السّخرية والاستهزاء. وقد كفى الله تعالى المصطفى ﷺ شرّ هذا السّلاح الخبيث. إنّ المشركين إذا رأوا المصطفى ﷺ ما يتّخذونه إلاّ موضع سخريتهم واستهزائهم. ومن مظاهر ذلك أنّهم يشيرون إلى المصطفى ﷺ في استهزاء ويقول بعضهم لبعضٍ في سخرية : أهذا الّذي يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها ويسفّه أحلامكم. والعجيب في هؤلاء المشركين أنّهم ينتصرون لآلهتهم المزعومة بينما هم متبلّدو الإحساس تجاه ربّ العالمين، يكفرون نعم الرحمن الرّحيم العظيمة، ويتجاهلون مواعظ الذّكر الحكيم البليغة.

وإنّ كفّار مكّة المعرضين عن القرآن الكريم الملحّين في طلب الآيات المحسوسة مثالُ جنس الإنسان العجول بطبعه والّذي خلقه الله تعالى من عجلةٍ هي جزءٌ من كيانه وما يصدر عنه.

ويقرّر السّياق أنّ ربّ العزّة والجلال سوف يُرى كفّار مكّة المستهزئين العجولين آياته عزّ وجلّ البيّنات، ومن بينها أخذهم بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يتضرّعون، ومن ثمّ هم يُنْهَوْن عن استعجال مجيء الآيات لأنّ في ذلك هلاكهم. ومن مظاهر الاستهزاء استعجال العذاب الّذي وعدهم المصطفى ﷺ به إن لم يؤمنوا.

ويجيب السّياق الكافرين على الاستهزاء والاستعجال بأنّهم لو يعلمون حين لا يدفعون عن وجوههم النّار يوم القيامة ولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون بصرف العذاب عنهم لما استهزأوا واستعجلوا العذاب. إنّ السّاعة لا تأتيهم إلاّ بغتةً فيقعون في أشدّ الحَيْرة والاضطراب ولا يستطيعون ردّ السّاعة ولا يُمْهلون لتوبةٍ أو مَعْذِرة.

وبقصد تسلية المصطفى ﷺ يقرّر السّياق في أسلوب التوكيد بأنّ كثيراً من المشركين السّابقين قد استهزأوا برسل الله تعالى إليهم فحلّ بهم العذاب الّذي كانوا يستهزئون به ويستعجلونه.

وبقصد حمل المشركين على العودة إلى جادّة الصّواب يأمر السّياق المصطفى

ﷺ أن يسأل أولئك المشركين : من يحفظكم ويرعاكم باللّيل والنّهار إن أراد الرّحمن الّذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ وحيّ وقَدَّر عذابكم. إنّه لا أحد يحفظهم ويرعاهم سوى الرّحمن الرّحيم. والحقيقة أنّهم عن ذكر ربّهم عزّ وجلّ معرضون، وعن القرآن الكريم منصرفون، وعن الصّراط المستقيم خارجون.

أمّ أنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم تورّطوا في الشّرك لأنّ لهم آلهةً سوى الله تعالى تمنع عنهم العذاب وتصرف عنهم السّوء. إنّ تلك الآلهة لا تستطيع أن تنصر أنفسها وتنتصر لها وإنّ عابدي الأصنام محرومون من توفيق الله تعالى لهم ومن كلّ خيرٍ يصحبهم. والحقيقة أنّ أولئك المشركين قد متّعهم الله تعالى هم وآباءهم في هذه الدّنيا، وطال بهم العمر، وفُتنوا بزهرة هذه الحياة الدّنيا الّتي جعلوها منتهى همّهم والّتي صَرَفَتْهم عن الآخرة. هلاّ اعتبر القوم بما يرون بعيونهم الّتي في رءوسهم أنّ الله سبحانه وتعالى يأتي أرض الكفر وينقصها من أطرافها بنصر المؤمنين. أفيعتقدون بعد كلّ هذه الأدلّة والحقائق أنّهم مستقبلاً هم الغالبون.

ولمّا كان المصطفى ﷺ لا يملك سوى البلاغ فإنّه عليه الصّلاة والسّلام يؤمر بأن يقول للمشركين : ما أنا إلاّ منذركم بما أوحى الله تعالى إليّ من قرآنٍ كريم وسنّةٍ مطهّرة. أمّا الكافرون المعرضون عن دعوة الحقّ فإنّهم بمثابة الصّمّ الّذين لا يسمعون أصلاً صوت النّذير. ولمّا كان المشركون يعلمون أنّهم لا تنقصهم الحجة على صدق المصطفى ﷺ لذا فإنّهم لو مسّتهم لفحةٌ من عذاب ربّك يا محمّد ليقولُنّ يا هلاكنا إنّا كنّا ظالمين فنحن نستحقّ العذاب. إنّ هذا الاعتراف لا ينفع الظّالمين لأنّه جاء بعد فوات الأوان، فهم على أبواب الآخرة لأنّ من مات فكأنّما قد قامت قيامته. وفي يوم القيامة يضع الله تعالى الموازين العَدْل فلا تُظْلم نفسٌ شيئاً بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة. وإن كان العمل زنة حبّةٍ من خردل ومثقال ذرّة من حسنةٍ أو سيئةٍ أتى الله تعالى بها فأثاب أو عاقب عليها. ويكفى الله تعالى في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود محصياً ومحاسباً ومجازيا.

(٤)

(يقصّ الله تعالى على محمّد ﷺ من أنباء الرسل ما يثبّت به فؤاده وأفئدة المؤمنين)

الآيات (٤٨ ـ ٩١)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ
ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

يقرّر السّياق أنّ ربّ العزّة والجلال قد آتى موسى وهارون عليهما السّلام الفرقان، والمراد به التّوراة الّتي أوحى الله تعالى بها إلى موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل. ووُصف هذا الكتاب بأنّه الفرقان، أي الّذي يَفْرُق بين الحقّ والباطل، لأنّ هذه الصّفة مشتركة بين كلّ كتب الله تعالى. كما آتى الله تعالى موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام الضّياء، الّذي يبدّد ظلمات الكفر والجهل، كما آتاهما ذكراً وعظةً للمتّقين من بنى إسرائيل. وأولئك المتّقون هم الّذين يخشون ربّهم جلّ وعلا ويخافونه بالغيب، بسبب تصديقهم بالوحي السّماويّ الّذي خصّ الله تعالى به موسى عليه السّلام والّذي من مقوّماته الإيقان بعالم الغيب. وممّا له علاقةٌ بعالم الغيب قيام السّاعة المشفقين منها والعالمين أنّها الحقّ من ربّهم عزّ وجلّ ولهذا هم يعملون من أجلها في الحياة الدّنيا دار العمل ولا جزاء.

وبعد الحديث عن موسى وهارون عليهما السّلام وعن التّوراة الّتي أوحى الله تعالى بها إلى موسى عليه السّلام يتمّ التّحوّل إلى الحديث عن القرآن الكريم الّذي أوحاه الله تعالى إلى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ. إنّ هذا القرآن الكريم ذكرٌ مباركٌ أنزلناه عليك أيها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، وإنّ هذا الكتاب العزيز خاتم الكتب السّماويّة وأشرفها أوحيناه إلى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم صلوات ربّ العالمين وسلامه أجمعين.

ومن البيّن أنّ الصّفات الّتي اتّصف بها الكتاب الّذي أوحاه الله تعالى إلى موسى عليه السّلام يتّصف بها القرآن الكريم المصدّق للكتب السّماويّة السّابقة، المهيمن عليها، الشّاهد بصحّتها فيما وافقته، وبتحريفها فيما خالفته.

وعلى الرّغم من كلّ نعوت هذا الكتاب العزيز فإنّ كفّار مكّة يكفرون بهذا الكتاب العزيز وينكرون نعوته، ولهذا يسألهم السّياق في إنكار: ﴿أفأنتم له منكرون﴾! أفأنتم منكرون لهذا الكتاب العزيز يا من عميت بصائركم وزادكم الله

تعالى عمىً إلى عماكم!

ومن البيّن أنّ السّورة الكريمة تتحوّل إلى الحديث عن موسى وهارون عليهما السّلام وعن بنى إسرائيل على غرار الكثير من المواطن في القرآن الكريم بقصد تسلية المصطفى ﷺ والمؤمنين، بسبب وجه الشّبه الكبير بين ملابسات كلٍّ من الدّعوة الموسويّة والمحمّديّة على صاحبيهما أشرف الصّلاة وأزكى التّسليم.

وليس بخاف أنّ كلاً من موسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام من أولي العزم الخمسة من الرّسل وهم على التّوالي نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والمعروف أنّ السّورة الكريمة تتحدّث في مواطن مختلفة منها عن هؤلاء الخمسة من الرّسل الكرام. أمّا الرّسول الكريم التّالى الّذي تتحدّث عنه السّورة الكريمة فإنّه إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه، وقد نجّى الله تعالى كلاً من إبراهيم ولوط عليهما السّلام إلى الأرض الّتى بارك جلّ وعلا فيها للعالمين، وهي أرض الشّام. ويلاحظ أنّ السّياق إذا كان قد جمع بين موسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام فإنّه يجمع بعد ذلك بين إبراهيم ولوط عليهما الصّلاة والسّلام.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ
ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل : أي من صغره ألهمه الحقّ والحجّة على قومه[١] ومن قبل موسى وهارون ووفّقناه للحقّ وأنقذناه من بين قومه وأهل بيته من عبادة الأوثان[٢]. يقول : آتيناه هداه[٣].

وكنّا به عالمين: وكنّا عالمين به أنّه ذو يقينٍ وإيمانٍ بالله وتوحيدٍ له لا يشرك به شيئاً[٤].

ما هذه التّماثيل الّتي أنتم لها عاكفون: ما هذه الأصنام الّتي أنتم مقيمون عليها[٥].

في ضلال مبين : في ذهابٍ عن سبيل الحقّ وجورٍ عن قصد السّبيل بيّن[٦].

أجئتنا بالحقّ أم أنت من اللاّعبين: الحقّ هنا ضدّ الباطل وهو الجدّ ولذلك قابلوه باللّعب[٧].

وتالله لأكيدنّ أصنامكم : يقول الزّمخشري[٨]:«فإن قلت : ما الفرق بين الباء والتّاء : قلت : إنّ الباء هي الأصل والتّاء بدل من الواو المبدلة منها، وأنّ التّاء فيها زيادة معنى وهو التّعجّب، كأنه تعجّب من تسهّل الكيد على يده وتأتّيه،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨١ والجلالين

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٧

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٧ ومعاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٠٦

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٧

(٥) انظر تفسير الطّبرى ١٧/ ٢٧

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٧

(٧) البحر المحيط ٦/ ٣٢١

(٨) الكشّاف ٢/ ٣٣١

لأنّ ذلك كان امراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذّره. ولعمري إنّ مثله صعبٌ متعذّر في كلّ زمانٍ خصوصاً في زمن نمروذ مع عتوّه واستكباره وقوّة سلطانه وتهالكه على نُصْرة دينه».

فجعلهم جُذاذاً : الجَذّ كسر الشّيء وتفتيته. ويقال لحجارة الذّهب المكسورة ولفُتات الذّهب جُذاذ(١). والجُذاذ بضمّ الجيم مصدر مثل الرُّفات والفُتات والدُّقاق لا واحد(٢).

إلاّ كبيراً لهم : إلاّ عظيماً للآلهة فإنّ إبراهيم لم يكسره ولكنّه فيما ذكر علّق الفأس في عنقه(٣).

سمعنا فتى : الفتى الطّريّ من الشّباب(٤).

على أعين النّاس: على رءوس النّاس وعلى مرأًى منهم(٥).

لعلّهم يشهدون: لعلّهم يشهدون عقوبتنا إيّاه(٦).

فرجعوا إلى أنفسهم : فرجعوا إلى عقولهم ونظر بعضهم إلى بعضٍ(٧).

فقالوا إنّكم أنتم الظّالمون : فقالوا إنّكم معشر القوم الظّالمون هذا الرّجل في مسألتكم إيّاه وقيلكم له من فعل هذه بآلهتنا يا إبراهيم، وهذه آلهتكم الّتي فعل بها ما فعل حاضرتكم فاسألوها(٨).

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «جذ» ٩٠

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٨

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٢٩

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فتى» ٣٧٢

(٥) انظر تفسير الطّبري ١٧/ ٣٠

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٠

(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٠

(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٠

ثمّ نُكسوا على رءوسهم : ثمّ غُلبوا في الحجّة فاحتجّوا على إبراهيم بما هو حجّةٌ لإبراهيم عليهم فقالوا : لقد علمت ما هؤلاء الأصنام ينطقون(١) والنَّكْس في الأشياء معنىً يرجع إلى قلب الشّيء وردّه وجعل أعلاه أسفله ومقدّمه مؤخّره. وقال الفرّاء في قوله عزّ وجلّ : ﴿ثمّ نُكسوا على رؤوسهم﴾ يقول : رجعوا عمّا(٢)عرفوا من الحجّة لإبراهيم، على نبيّنا محمّد وعليه الصّلاة والتّسليم(٣).

أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله: قبحاً لكم وللآلهة الّتي تعبدون من دون الله(٤).

إن كنتم فاعلين : إن كنتم ناصريها ولم تريدوا ترك عبادتها(٥).

ونجّيناه ولوطاً إلى الأرض الّتي باركنا فيها للعالمين: ونجّينا إبراهيم ولوطاً من أعدائهما نمرود وقومه من أرض العراق إلى أرض الشّام. فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم وهاجر إلى الشّام(٦).

ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة : ووهبنا له إسحاق ولداً ويعقوب ابن ابنٍ نافلة(٧) والنافلة: العطيّة(٨).

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٣١

(٢) في معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٠٧: «عندما»

(٣) لسان العرب : «نكس»

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٢

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٢

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٤

(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٦

(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٦

يقرّر السّياق أنّ ربّ العزة والجلال آتى إبراهيم عليه السّلام رشده من قبل موسى وهارون عليهما السّلام، وأعطى أبا الانبياء عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه هداه من صغره وقبل البلوغ، وكان الله سبحانه وتعالى عالماً بإبراهيم عليه السّلام الحليم الأوّاه المنيب الأهل للاصطفاء بالنّبوّة وبالخُلّة. لقد آتى الله تعالى إبراهيم عليه السّلام هداه حين قال لأبيه آزر المشرك وقومه المشركين في إنكار: ما هذه الأصنام الّتي أنتم مقيمون على عبادتها. قالوا وجدنا آباءنا عاكفين على عبادتها وإنّا على آثارهم مقتدون. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم بسبب عبادة الأصنام في ذهابٍ عن سبيل الحقّ بيّن، وخروج على الصّراط المستقيم واضح. قالوا يا إبراهيم أجئتنا بالحقّ وبالجدّ أم أنت من الهازلين اللاعبين. قال بل ربّكم المعبود بحقّ ربّ السماوات والأرض الّذي خلقهنّ على غير مثالٍ سابق وأنا من الشّاهدين على أنّه هو وحده جلّ وعلا المعبود بحقّ. ثمّ أقسم إبراهيم عليه السّلام بالله تعالى العليّ العظيم بأنّه سوف يكيد لتلك الأصنام بعد أن يذهبوا عنها إلى عيدٍ لهم ويتركوها وراءهم مع لذيذ الأطعمة الّتي يضعونها عندها مظهراً من مظاهر التّقربّ إلى تلك الأصنام الّتي يعبدونها. وحينما همّ القوم أن يذهبوا إلى عيدهم طلبوا منه أن يصاحبهم فاعتذر عليه الصّلاة والسّلام بأنّه سقيم، وقد انتهز عليه الصّلاة والسّلام فرصة غيابهم وغياب سدنة الأصنام كي يكسر رقابها بفأسه باستثناء كبير الأصنام الّذي علّق الفأس برقبته ووضعه على صدره. ومن الآيات الكريمات الّتي تحدّثت في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الصّافّات بعد الحديث عن نوحٍ عليه السّلام. قال عزّ من قائل(١) ﴿وإنّ من شيعته لإبراهيم. إذ جاءربّه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكاً آلهةً دون الله تريدون. فما ظنّكم بربّ العالمين. فنظر نظرةً في النّجوم. فقال إنّى سقيم. فتولّوا عنه مدبرين. فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. ما لكم لا تنطقون. فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾.

---

(١) سورة الصّافّات ٨٣ ـ ٩٣

إنّ إبراهيم عليه السّلام قد جعل تلك الآلهة قطعاً صغيرةً وفتاتاً دليلاً على تصميمه عليه السّلام على إبادتها إلاّ كبير تلك الأصنام، وعظيم تلك التّماثيل، الّذي علّق الفأس بعنقه لعلّ القوم المشركين يرجعون إليه ويسألونه عمّن فعل بالأصنام تلك الأفاعيل، وحينما لا يجيبهم ولا ينطق يعود إليهم رشدهم ويصحّحون خطأهم ويسلمون لله ربّ العالمين.

حينما تبيّن المشركون ما حلّ بأصنامهم من دمار كان ذلك لهم بمثابة قاصمة الظّهر فسألوا في إنكار : من فعل هذا الخطأ الشنيع في حقّ آلهتنا، إنّه حقّاً لمن الظّالمين لها ولنا نحن عابديها!

ولمّا كان لإبراهيم عليه السّلام موقفٌ معروفٌ من عبادة القوم لغير الله تعالى وكان منه وحده عليه السّلام المعاداة السّافرة لتلك الأصنام، وآخرها إعلانه الكيد لها حينما يخلو الجو له معها، فإن الّذين يعلمون شيئاً من ذلك قالوا: إنّا سمعنا شاباً في مقتبل العمر يذكر تلك التّماثيل بسوءٍ يقال له إبراهيم. قال أصحاب السلطان والقيادة فأتوا بهذا الفتى علي مرأىً من النّاس أجمعين لعلّهم يشاهدون عقابنا إيّاه وعذابنا له. وجيء بإبراهيم عليه السلام وقالوا له أأنت فعلت هذا الجرم الكبير بآلهتنا يا إبراهيم. قال بل فعل هذا الجرم الكبير كبير الأصنام هذا فاسألوهم عن جلّيّة الأمر إن كانوا ينطقون : اسألوا الأصنام الصّغار من فعل بكم هذا؟ واسألوا الصّنم الكبير لم فعلت هذا؟ إن كانت الأصنام تجيب أو تنطق.

وحينما ألقى إبراهيم عليه السّلام على القوم هذا الرّأي والتّنبيه إلى أنّ الأصنام لا تنطق فضلاً عن أن تجيب نشطت عقولهم قليلاً لهول صدمة الرّأي والتّنبيه فرجعوا إلى أنفسهم، واستعملوا عقلوهم، وأقنعتهم حجّة إبراهيم عليه السّلام فقالوا إنّكم أنتم الظّالمون بعبادتكم من لا ينطق فضلاً عن أن يجيب أو يدافع عن نفسه. وكأنّ جواب إبراهيم عليه السّلام أيقظ في أعماقهم كامن الفطرة الّتي فطر الله تعالى النّاس عليها بأنّ الله تعالى وحده لا شريك له هو المعبود بحقّ.

ثمّ نُكس القوم على رءوسهم، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وارتدّوا على أعقابهم، وقلبوا حجّة إبراهيم عليه السّلام عليه فقالوا: لقد علمت يا إبراهيم بأنّ هذه التّماثيل لا تنطق فكيف تطلب منّا أن نسألها وتصرف السّؤال عنك إليها والمفروض أن تجيبنا أنت عن سؤالنا لأنك تنطق وليس كذلك الأصنام.

وهنا ينفجر إبراهيم عليه السلام في تسفيه أحلام القوم ونعيه عليهم تعطيل نعمة العقل فيقول : أتعبدون من دون الله تعالى الآلهة الّتي لا تنفعكم شيئاً لو عبدتموها والّتي لا تضركم شيئا لو هجرتموها. قبحاً لكم أيها المشركون وللتماثيل الّتي تعبدونها من دون الله تعالى . هلاّ استعملتم عقولكم استعمالاً صحيحاً فأفردتم الله تعالى بالعبادة وهجرتم عبادة التّماثيل والأصنام.

لقد قابل المشركون هجوم إبراهيم عليه السّلام الكاسح على آلهتهم وعليهم بردّ فعل جامح فقرّروا تحريق إبراهيم عليه السّلام بالنّار المتأجّجةً وأمر بعضهم بعضاً بأنّ ينصروا آلهتهم إنّ كانوا فاعلين ذلك وجادّين في نصرتها وعمل ما فيه عزتها . وفعلاً قذف المشركون إبراهيم عليه السّلام القانت لله تعالى المسلم الله ربّ العالمين في الجحيم. وقد أرادوا به عليه الصّلاة والسّلام كيداً فجعلهم الله تعالى الأخسرين والأسفلين. قال الحقّ جلّ وعلا للنّار كوني برداً وبذلك فقدت النار بأمر ربّها جلّ وعلا صفتها وتحولت ضداً وكانت برداً. ولما كان أذى البرد والقُرّ لايكاد يختلف عن النار والحرّ فإنّ ربّ العزّة والجلال يأمر النّار بأنّ تكون سلاماً على إبراهيم وعافية ، وهكذا تتحوّل النّار بأمر ربّها جلّ وعلا برداً خفيفاً وسلاماً لطيفاً.

وهكذا أراد المشركون كيداً بإبراهيم عليه السّلام فجعلهم الله تعالى الأخسرين في الأولى والآخرة. إنّهم أصرّوا على كفرهم وواصلوا إيذاءهم لإبراهيم عليه السّلام ، وأرادوا الفتك به عليه السّلام فنجاه الله تعالى من القوم المجرمين كما نجّى لوطا الّذي آمن به عليه السّلام. وقد جاء في سورة العنكبوت(١)

(١) الآية : ٢٦

قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿فآمن له لوط﴾ وكان من متعلّقات النجاة بإذن الله تعالى الهجرة من أرض العراق إلى أرض الشام الّتي باركها الله تعالى للعالمين من الوجهتين الدينيّة والدنيويّة. الدّينيّة بإرسال النبيّين والمرسلين ، والدنيويّة بكثرة الخيرات والبركات. وقد وهب الله تعالى لإبراهيم عليه السّلام في حياته كلاًّ من إسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق ، عليهم السّلام ، مزيد فضل وعطية ، وأكرمهما بنعمة النبوّة. وقد جعل الله تعالى كلّ واحد من هؤلاء الغاية في الصّلاح والتّقوى. كما جعل الله تعالى هؤلاء المصطفين الأخيار أئمّة يهدون إلى سبل الرشاد ويدعون إلى توحيد الله تعالى بإذنه عزّ وجلّ وبأمره ، وأوحى الله تعالى إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلوات المفروضة ، وإيتاء الزكاة الواجبة لمستحقّيها ، ووفّقهم عزّ وجلّ لكلّ ذلك. إنّهم جميعاً كانوا مخلصين العبادة لله تعالى وحده لاشريك له.

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

ولوطاً آتيناه : وآتينا لوطا (١)

حكماً : الحكم فصل القضاء بين الخصوم (٢) والحكم أعمّ من الحكمة فإنّ الحكم أن يقضي بشيءٍ على شيء فيقول هو كذا أوليس بكذا. قال صلّى الله عليه

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧
(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧

وسلّم : إنّ من الشعر لحكمة ، أي قضية صادقة. قال الله تعالى (١) ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ وقال صلّى الله عليه وسلّم : الصّمت حُكمٌ وقليلٌ فاعله ، أي حكمة (٢).

وعلماً : وآتيناه أيضا علماً بأمر دينه وما يجب عليه لله من فرائضه (٣) .

ونجّيناه من القرية : وهي قرية سدوم الّتي كان لوط بُعثَ إلى أهلها(٤) .

الّتي كانت تعمل الخبائث : إتيان الذّكران في أدبارهم (٥) .

وقد أخرج الله لوطاً وابنتيه إلى الشّام حين أراد إهلاك قومه (٦) . ولوط هو ابن أخى إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام (٧) .

لقد آتى الله سبحانه وتعالى لوطاً ، ابن أخى إبراهيم عليهما السّلام الحُكم بمعنى نعمة فصل القضاء بين الخصوم ، وهذه النعمة امتداد للحكمة الّتي خصّه الله تعالى بها ، والّتي تجلّت في كلّ موقف. كما آتى الله تعالى لوطاً عليه السّلام علماً لدنّياً بأمر الدين . ولما قضى الله تعالى إهلاك قرى قومه عليه السّلام نجّاه الله تعالى من القرية الّتي كان فيها ، وهي قرية سدوم ، الّتي كان يعمل أهلها الخبائث، شأن سائر قرى قوم لوط عليه السّلام الّذين كانوا يأتون الذّكران في أدبارهم. إنّهم كانوا قوماً ساء عملهم وقبح فعلهم وكانوا خارجين عن الصراط المستقيم.

---

(١) سورة مريم آية : ١٢

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني :«حكم» ١٢٧

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧

(٧) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٠ وتفسير ابن عطية ٧/ ٣٤٦

وإنّ الله تعالى الّذي نجّى لوطاً عليه السّلام وأهل بيته إلاّ امرأته ، والّذي أخرجه من قرية سدوم الظالم أهلها ، أدخله في رحمته عزّ وجلّ ، وأمره بأن يتوجه إلى أرض الشام الّتي بارك الله تعالى فيها من النّاحيتين الدينيّة والدّنيويّة. إنّ لوطاً عليه الصّلاة والسّلام من الصّالحين الّذين بلغوا الغاية في هذا المجال فقد كان أحد المرسلين المصطفين الأخيار. والمعروف أنّه ليس وراء نعمة الرسالة نعمة ، وقد كان لوط عليه السّلام أهلاً لهذه النعمة الّتي اصطفاه الله تعالى بها لصلاحه وتقواه عليه الصّلاة والسّلام.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

ونوحاً إذ نادى من قبل: واذكر يامحمّد نوحاً إذ نادى ربّه من قبلك ومن قبل إبراهيم ولوط (١)

من الكربَ العظيم: الكرب شدّة الغمّ، يقال منه : قد كربني هذا الأمر فهو يكربني كربًا (٢)ويعنى بالكرب العظيم العذاب الّذي أحلّ بالمكذّبين من الطّوفان والغرق (٣) .

ونصرناه من القوم الّذين كذّبوا بآياتنا: ومنعناه من القوم الّذين كذّبوا بآياتنا(٤) ونجيناه وخلّصناه منتصراً (٥)

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧

(٤) الجلالين (٥) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٥

إنّهم كانوا قوم سَوْء : إنّ قوم نوح الّذين كذّبوا بآياتنا كانوا قوم سوء يسيئون الأعمال فيعصون الله ويخالفون أمره (١) .

نوحٌ عليه الصّلاة والسّلام أوّل الرّسل والأب الثّاني للبشريّة وأحد أولى العزم الخمسة من الرّسل. وسبق أنّ تحدّث السّياق عن ثلاثة من أولى العزم من الرّسل وهم موسى ومحمّد وإبراهيم عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه.

يخاطب السّياق محمّداً صلّى الله عليه وسلّم ويقول له : واذكر يامحمّد لقومك نوحاً حين نادى ربّه عزّ وجلّ من قبلك ومن قبل إبراهيم ولوط وموسى وهارون عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، ودعاه بأن ينصره ويهلك قومه ، وممّا جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا في سورة نوح (٢) : ﴿وقال نوح ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّارا .إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولايلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً. ربّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولاتزد الظّالمين إلاّ تباراً﴾ وقد استجاب الله تعالى دعاء نوح عليه السّلام فنجّاه وأهله المؤمنين به من الكرب العظيم ، والغمّ الشديد ، والعذاب الأكيد ، وقد تمثّل ذلك في الطوفان والغرق. وقد نصرالله تعالى نوحاً عليه السّلام ومنعه من القوم الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى واصرّوا على كفرهم ، وعلى إيتان الأعمال السّيّئة فأغرقهم الله تعالى أجمعين. ومن الآيات الكريمات الّتي تحدّثت في هذه المعاني قول الحقّ جلّ وعلا في سورة القمر (٣) ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربّه أنّي مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السّماء بماء منهمر. وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٧

(٢) الآيات ٢٦-٢٨

(٣) الآيات ٩-١٦

ألواح ودُسُر (١) تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر. ولقد تركناها آيةً فهل من مدّكر. فكيف كان عذابي ونذر﴾.

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ
فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾
وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث : واذكر داود وسليمان يامحمّد إذ يحكمان في الحرث (٢) وقيل كان الحرث نبتاً وزرعاً ، وقيل كان كرما(٣) وقد أنبت عناقيده (٤) .

---

(١) الدُّسر : ما تُشَدّ به الألواح من المسامير وغيرها واحدها دسار ككتاب. الجلالين

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٨

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٧/ ٣٨

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٣٨

إذ نفشت فيه غنم القوم: النَّفْش في الأصل نشر الصّوف. قال (١) ﴿كالعهن المنفوش﴾ ونفْش الغنم انتشارها. والنَّفَش بالفتح الغنم المنتشرة. والإبل النوافش المتردّدة ليلاً في المرعى بلا راع (٢) والمعنى : حين دخلت في هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلاً فرعته أو أفسدته (٣) قال شُرَيْح والزّهري وقتادة : النّفش لايكون إلاّ بالليل. زاد قتادة : والهَمَل بالنّهار (٤) .

ففهمناها سليمان: قال ابن مسعود : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم. فقال سليمان : غَيْرَ هذا يانبيّ الله .قال: وما ذاك. قال: يُدْفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتّى يعود كما كان. وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها. حتّى إذا كان الكرم كما كان دَفَعْتَ الكرم إلى صاحبه ودَفَعْتَ الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله :﴿ففهّمناها سليمان﴾ (٥) .

وكلاً آتينا حكماً: النّبوّة (٦) .

وعلماً: بأحكام الله (٧) .

يسبّحن : يسبّحن معه عليه السّلام إذا سبّح (٨) .

---

(١) سورة القارعة ٥ والعهن : الصّوف. الجلالين

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني :«نفش» ٥٠٢

(٣) تفسير الطّبري ٣٨/١٧

(٤) تفسير ابن كثير ١٨٦/٣ وانظر فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ٣٧٥ حلبي ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م وانظر لسان العرب :«نفش».

(٥) انظر تفسير الطّبري ٣٨/١٧

(٦) تفسير الطّبري ٣٨/١٧

(٧) تفسير الطّبري ٣٨/١٧

(٨) تفسير الطّبري ٤١/١٧

لبوس: اللّبوس ما يُلْبَس . والمراد باللّبوس هنا الدّروع [١] واللّبوس عند العرب في الأساس السّلاح كلُّه ، درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً [٢] .

لتحصنكم من بأسكم : لتحرزكم [٣] من حربكم وقتالكم [٤] وتحصّن إذا اتّخذ الحصن مسكنا. ثم يُتَجوَّز به في كلّ تَحَرُّز. ومنه درع حصينة لكونها حِصْناً للبدن ، وفَرَسٌ حِصان لكونه حِصْناً لراكبه [٥] قال قتادة كانت الدّروع صفائح فأوّل من سَرَدها وحلَّقها داود عليه السّلام [٦] فهو أوّل من سردها حَلَقا [٧] والسَّرْد خَرْز ما يخشن ويغلظ كنسج الدِّرع وخرْز الجلد. واستعير لنظم الحديد قال [٨] ﴿وقدِّر في السَرْد﴾ والمِسْرَد المِثْقب [٩] ومعنى ﴿وقدر في السرد﴾ أي في نسج الدّروع واجعله بحيث تتناسب حلقه. وقيل لصانعها سرّاد [١٠] ويقول ابن كثير [١١] «أيْ لاتوسّع الحَلْقة فتُقْلِق المسمار، ولا تُغْلِظ المسمار فَتَقُدّ الحَلْقة» بل أحكمه [١٢].

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «لبس» ٤٤٧ وتفسير الطّبري ١٧/ ٤١

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٤١ والجوشن درع الصَّدْر.

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٤١

(٤) انظر مفردات الراغب الأصفهاني : « بؤس» ٦٦ وتفسير ابن كثير ٣/ ١٨٧ .

(٥) انظر مفردات الراغب الأصفهاني : «حصن» ١٢١

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٤١

(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٧

(٨) سورة سبأ

(٩) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سرد» ٢٣٠

(١٠) انظر الجلالين والمعجم الوسيط : «سرد».

(١١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٧

(١٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قدر» ٣٩٦

ولسليمان الريح عاصفة : وسخّرنا لسليمان بن داود الريح عاصفة ، وعصوفها شدّة هبوبها (١) .

إلى الارض الّتي باركنا فيها : يعنى إلى الشّام وذلك أنّها كانت تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان ثم تعود به إلى منزله بالشام فلذلك قيل ﴿ إلى الأرض الّتي باركنا فيها﴾ (٢) .

ومن الشّياطين: وسخّرنا أيضا لسليمان من الشياطين (٣)

دون ذلك : غير ذلك (٤) وسوى الغوص من البناء وغيره (٥).

واذكر يامحمّد لقومك داود وسليمان بن داود عليهما السّلام حين يحكمان في شأن الزّرع الّذي رعته ليلاً وأفسدته غنم القوم أصحابها على حين غفلة منهم ومن أصحاب الزّرع . لقد حكم داود عليه السّلام أوّل الأمر بالغنم لصاحب الزّرع مقابل ما أفسدت الغنم من زرع وثمر ، وقد فهّم الله سبحانه وتعالى سليمان بن دواد عليهما السّلام حكماً آخر يُبقى لكلّ من صاحب الزّرع والغنم ما يملك، على أن يُصْلح صاحب الغنم لصاحب الزّرع ما أفسدت غنمه . وفي تلك الأثناء ينتفع صاحب الزّرع من الغنم لبناً وصوفاً وما إلى ذلك. فإذا عاد الزّرع إلى الحال الّتي كان عليها استرد صاحب الزّرع أرضه واستردّ صاحب الغنم غنمه.

ومن البيّن أنّ هذا الحكم قد ألهمه الله تعالى الابن سليمان بن داود عليهما السّلام. وتنبيهًا على حظّ داود عليه السّلام من الحكم بمعنى القدرة على إصدار الأحكام الصائبة والفصل في الحكومات ، ومصدر كلّ ذلك الحكمة الّتي اصطفاه

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٤١

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٤١

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٤٢

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٧

(٥) الجلالين

الله تعالى بها ، يجيء في حقّ كلّ من داود وسليمان عليهما السّلام قول الحقّ جلّ وعلا ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلما﴾ والمراد بالعلم العلم اللّدنّيّ الّذي يختصّ الله سبّحانه وتعالى به بعض المنعم عليهم من عباده عزّ وجلّ. وفي مقدمة هؤلاء النبيون والمرسلون عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. لقد كان حظّ كلٍّ من داود وسليمان عليهما السّلام موفوراً من الحكمة والعلم اللّدنّيّ. وفيما يتصل بالحكم الآخر قد فهّمه الله تعالى سليمان عليه السّلام ولم يفهّمه داود عليه السّلام والله تعالى لايُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون.

وإذا كان ربّ العزّة والجلال قد أوحى إلى سليمان عليه السّلام الحكم الصائب في هذه القضيّة فإنّ ربّ العزّة والجلال قد آتى داود عليه السّلام من النعم مالا يحصى. وبالإضافة إلى نعمة النّبوّة الّتي هي محض فضلٍ من الله تعالى سخّر الله تعالى مع داود عليه السّلام الجبال يسّبحن إذا سبّح الله تعالى وكذلك سخّر جلّ وعلا الطير. إنّ الله سبّحانه وتعالى القادر على كلّ شيء الفعّال لما يريد هو الذي فعل ذلك وهو الذي جعل الجبال وهي جماد، والطير وهي حيوان ، تسبّح الله تعالى وتنزّهه عمّا لايليق به عزّ وجلّ حينما يسّبح الله تعالى وينزهه عزّ وجلّ النبيُّ الإنسان داود عليه السّلام. وهكذا يسبّح الله تعالى كلٌّ من الإنسان والحيوان والجماد.

ومن نعم الله تعالى على داود عليه السّلام وعلى النّاس أنّ ربّ العزّة قد ألان لداود عليه السّلام الحديد (١). وفي الحديث أنّه لايأكلّ إلاّ من عمل يده (٢) وعلّم داود عليه السّلام صنع الدّروع في هيئة حلقات حديديّة مرتّبة في نسق معيّن ومتماسكة بمسامير ، مع مراعاة حجم كلٍّ من الحلْقة والمسمار بحيث تحقّق الدّرع بإذن الله تعالى الهدف من صنعها وتكون للمقاتل بمثابة الحصن الّذي يتحصّن به

---

(١) انظر هنا مثلا ترجمته عليه السلام في تهذيب الأسماء واللّغات للنّووي١/ ١٧٩

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٨١

في أثناء القتال . لقد كانت الدّروع قبل داود عليه السّلام صفائح من حديد ، وقد علّمه الله تعالى صنعها من حلقات ، وبذلك يتحقّق لهذا النوع من الدّروع خصائص ليست لسواها من الدّروع ، ومن أهمّ هذه الخصائص شمولها كامل الجسد إضافةً إلى لينها وخفّتها.

لقد كان عمل داود عليه السّلام هذا النّوع من الدّروع منعطفاً خطيراً في عمليّة صنع السّلاح. وتجاه النّسبة العالية من الأمان بإذن الله تعالى لمن يرتدي هذا النّوع من الدّروع يحثّ السياق في القول ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ النّاس أجمعين على أن يشكروا لله تعالى هذه النّعمة العظيمة. ومعروفٌ أنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم لايشكرون لله تعالى هذه النّعمة ولا أكبر نعمة وهي نعمة بعث خاتم النبّيين وأشرف المرسلين ، صلّى الله وسلّم عليهم أجمعين ، من أنفسهم. جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا في سورة سبأ (١) ﴿ولقد آتينا داود منّا فضلاً ياجبالُ أوّبي معه والطيرَ وألنّا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدّر في السَّرْد واعملوا صالحاً. إنّي بما تعملون بصير﴾ وجاء خطاباً للنبّيّ صلّى الله عليه وسلّم في هذا المعنى كذلك قول الحقّ جلّ وعلا في سورة ص(٢) . ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأَيْد (٣) إنّه أوّاب . إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق . والطّيرَ محشورةً كلٌّ له أوّاب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ وجاء في سورة البقرة (٤) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ولـمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربّنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله وقتل داودُ جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما

---

(١) الآيتان ١٠، ١١

(٢) الآيات ١٧ - ٢٠

(٣) الأَيْد بمعنى القوّة في العبادة . الجلالين

(٤) الآيات ٢٥٠ - ٢٥٢

يشاء. ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ وإنّك لمن المرسلين﴾.

وليس بخافٍ أنّ تسلية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم من صميم أهداف القصص القرآني وذكر أنباء الرسل ، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين.

ويتحوّل السّياق إلى سليمان بن داود عليهما السّلام فيقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى سخّر لسليمان عليه السّلام الرّيح العاصفة الملتئمة الشديدة الهُبوب تجرى بأمره عليه السّلام إلى أرض الشام الّتي بارك الله تعالى فيها. وقد كان ملكه عليه السّلام واسعاً (١) وكان الله سبّحانه وتعالى عليماً بكلّ شيء ، وقد آتى جلّ وعلا سليمان عليه السّلام ما سبق علم الله تعالى إليه من أنّ سليمان عليه السّلام شكورٌ لمولاه أهلٌ لنُعْماه. وكذلك سخّر الله تعالى لسليمان عليه السّلام من شياطين الجن ومردتهم مَنْ يغوصون له في أعماق البحار لاستخراج المعادن الثّمينة، ومَنْ يعملون له عملاً غير ذلك من المحاريب والتماثيل والجفان وما إلى ذلك. وكان الله سبحانه وتعالى لهم حافظاً وعليهم رقيباً ولهم محاسباً ومجازيا.

وكما كانت الرّيح عاصفةً شديدة الهُبوب أحياناً كانت هادئةً رخاءً أحياناً أخرى. وما أكثر النعم الّتي امتنّ الله سبحانه وتعالى بها على سليمان عليه السّلام.

ومن الآيات الكريمات الّتي أشارت إلى بعض نعم الله تعالى على سليمان عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا في سورة ص (٢) : ﴿ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب . قال ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي إنّك أنت الوهّاب . فسخّرنا له الرّيح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب. والشياطينَ كلَّ بناءٍ وغوّاص . وآخرين مقرّنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإنّ له عندنا لزُلْفى وحُسْنَ مآب﴾. ومن الآيات الكريمات كذلك قولُ

---

(١) انظر - مثلاً- ترجمته في تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٢٣٢

(٢) الآيات ٣٤-٤٠

الحقّ جلّ وعلا في سورة سبأ (١) ﴿ولسليمان الريحَ غُدُوُّها شهرٌ ورَواحها شهرٌ وأسلنا له عين القِطْر (٢) ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه. ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السّعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب (٣) وقدورٍ راسياتٍ اعملوا آل داود شكراً. وقليلٌ من عبادي الشّكور. فلمّا قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلاّ دابّة الأرض تأكل منْسَأَته (٤) فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾.

وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ
وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

يُضْرَبُ بأيّوب عليه السّلام المثل في الصّبر على البلاء. وإنّ في حديث السّورة الكريمة عن أيّوب عليه السّلام تثبيتا لفؤاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ولأفئدة المؤمنين في هذه الفترة المكّيّة الّتي يسوم فيها كفّار مكّة المؤمنين الخسف ويسرفون في إيذائهم. إنّ السّياق يأمر المصطفى ﷺ أنّ يذكر أيّوب عليه السّلام حين نادى ربّه جلّ وعلا، وقد اشتدّ به البلاء، أنّي مسّني الضُّرُّ وأنّت ياإلهي

---

(١) الآيات ١٢-١٤

(٢) القِطْر: النّحاس.

(٣) الجوابي جمع جابية بمعنى الحوض الكبير

(٤) منسأته: عصاه. الجلالين

أرحم الرّاحمين . ومع أنّ الضُّرّ الّذي تمكّن من أيّوب عليه السّلام كان قويًا فإنّه عليه السّلام تأدّباً مع الله تعالى يقول إنّ الضُّرّ قد مسّه عليه السّلام مسّاً خفيفاً. وإذا كان الضُّرّ هو الّذي مسّ أيّوب عليه السّلام هنا فإنّ الشّيطان الرّجيم هو الّذي مسّ أيّوب عليه السّلام في قول الحقّ جلّ وعلا في سورة ص [1] : ﴿واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسّني الشيطان بنُصْبٍ[2] وعذاب﴾.

وقد استجاب الله تعالى لدعاء أيّوب عليه السّلام فكشف عزّ وجلّ ما به من ضُرٍّ وما ناله من بلاء ، فعاد معافى البدن ، وآتاه عزّ وجلّ أهله ، وآتاه فضلاً منه عزّ وجلّ مثل أهله معهم ، رحمةً من أرحم الراحمين بأيّوب عليه السّلام ، وتذكرةً للعابدين، وتنبيهاً لأهل البلاء أنّ ابتلاء الله تعالى لعباده لمعرفة حقيقة إيمانهم وليس لهوانهم. وقد قال النّبي صلّى الله عليه وسلّم : أشدُّ النّاس بلاءً الأنبياء ثم الصّالحون ثم الأمثل فالأمثل . وفي الحديث الآخر : يُبْتَلَى الرجل على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابةٌ زيد في بلائه [3] .

ومن الآيات الكريمات الّتي ذكرت في شيء من التّفصيل قصّة أيّوب عليه السّلام الآيات الكريمات من سورة ص. قال عزّ من قائل [4] : ﴿واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مَسّنِي الشّيطان بنُصْبٍ وعذاب . أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مغتسلٌ باردٌ وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منّا وذكرى لأولى الألباب. وخذ بيدك ضغثاً فاضربْ به ولاتحنث. إنّا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أوّاب﴾ إنّ ربّ العزّة والجلال حينما أذن بشفاء أيّوب عليه السّلام من مرضه وبكشف كربه أمره أن يضرب الأرض برجله كي تَنْبُعَ عين ماء بارد يغتسل به فيبرأ ظاهره،

---

(١) الآية : ٤١

(٢) بُنصب: بضرّ.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٨

(٤) سورة ص ٤١-٤٤

ويشرب منه فيبرأ باطنه. ووهب الله تعالى لأيّوب عليه السّلام أهله الّذين فقدهم، ربّما بإحيائهم فلا يعجز الله تعالى شيءٌ أراده عزّ وجلّ ، كما وهب له مثل أهله معهم ، رحمةً منه عزّ وجلّ بأيّوب عليه السّلام الصابر المبتلى، وتذكرةً لأولى العقول الراجحة من الّذين ابتلاهم الله تعالى بأنّ ابتلاءهم بسبب ما لله تعالى في ذلك من حكمةٍ بالغة. ولـمّا كان أيّوب عليه السّلام في إحدى الـمرّات الّتي أبطأت عليه زوجه قد حلف ليضربنّها مائة ضربة، وكانت هذه الزوجة الصالحة هي الّتي بقيت وحدها مع أيّوب عليه السّلام في محنته فإنّ ربّ العزّة والجلال الّذي وسعت رحمته كلّ شيء يأمر أيّوب عليه السّلام، كي يبرّ بقسمه ، بأن يأخذ حزمةً من حشيش الأرض فيضرب بها زوجه ضربةً واحدة ، فيفعل عليه السّلام ذلك. ويقرّر السياق أنّ أيّوب عليه السّلام، كان صابرا ، وأنّه كان نعم العبد ، وأنّه كثير الرجوع إلى الله تعالى بالعبادة والاستغفار والتّوبة.

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

يُضرب بأيّوب عليه السّلام المثل في الصّبر ، ويتحوّل السّياق إلى ذكر ثلاثة من المصطفين الأخيار مِنْ أهمّ نعوتهم الصّبر أيضا . إنّ السّياق يأمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يذكر لقومه في القرآن الكريم إسماعيل وإدريس وذا الكفل. وإسماعيل هو ابن ابراهيم عليهما السّلام، وإسماعيل عليه السّلام هو أبو العرب، ومن ذريته عليه السّلام النّبيّ الوحيد ، محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم جميعا صلوات ربّ العالمين وسلامه. والمعروف أنّ إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء له ولدان هما إسماعيل وقد عرفنا أنّ من ذريته محمّد بن

عبد الله صلّى الله عليه وسلّم ، وإسحاق ، وكلّ أنبياء بني إسرائيل من ذرّيّته عليه السّلام . وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام.

وبشأن إسماعيل عليه السّلام جاء في سورة مريم قول الحقّ جلّ وعلا (١): ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنّه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيّاً . وكان يأمر أهله بالصّلاة والزكاة وكان عند ربّه مرضياً﴾.

وبشأنّ إدريس عليه السّلام جاء في سورة مريم قول الحقّ جلّ وعلا (٢): ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنّه كان صديقاً نبّياً. ورفعناه مكاناً عليّاً ﴾ وقد جاء في صحيح مسلم (٣) أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرّ بإدريس عليه السّلام في ليلة الإسراء وهو في السّماء الرابعة.

وبشأنّ ذي الكفل يقول ابن كثير (٤) : «وأمّا ذو الكفل فالظّاهر من السّياق أنّه ما قرن مع الأنبياء إلاّ وهو نبيّ » ونحن نرى رأي ابن كثير رحمه الله تعالى رحمةً واسعة. وقد فهم العلماء من الأصل اللغوي :«كفل» المشتقّ منه القول: ﴿وذا الكفل﴾ أنّه عليه السّلام قد وفى بما تكفّل به من إخلاص العبادة لله تعالى وحده لاشريك له.

وينصّ السّياق على أنّ كلاً من هؤلاء المصطفين الأخيار من الصّابرين على البلاء والطّاعات وعن المعاصى. كما ينصّ على أنّهم قد بلغوا الغاية في الصّلاح والتّقوى. وبسبب اتّصافهم بهذه النعوت أدخلهم ربّ العزّة والجلال في رحمته الّتي وسعت كلّ شيء وحيّ.

---

(١) سورة مريم ٥٤و٥٥

(٢) سورة مريم ٥٦و٥٧

(٣) ٢/ ٢١٣

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٠

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى
كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ
مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

وذا النّون : واذكر يامحمّد ذا النّون ، يعنى صاحب النّون ، والنّون الحوت. وإنّما عَنَى بذي النّون يونس بن مَتَّى (١) والفصيح في يونس ضم النون بلا همز الواو وبه جاء القرآن (٢) ومتَّى بفتح الميم وتشديد التّاء المثنّاة فوق مقصوراً (٣) وقد بعثه الله إلى أهل قرية نِينَوَى ، وهي قرية من أرض المَوْصِل (٤) ونينوى بكسر أوّله وسكون ثانيه وفتح النّون والواو (٥) فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلماً تحقّقوا منه ذلك وعلموا أنّ النّبيّ لايكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم وفرّقوا بين الأمّهات وأولادها، ثم تضرّعوا إلى الله عزّ وجلّ وجأروا إليه (٦) ورغت الإبل وفُصْلانُها (٧) وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها (٨) فرفع الله عنهم العذاب(٩)

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٦١

(٢) انظر تهذيب الأسماء واللّغات للنّووي ٢/ ١٦٧

(٣) تهذيب الأسماء واللّغات ٢/ ١٦٧

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩١

(٥) معجم البلدان لياقوت الحموي: «نينوى» ٥/ ٣٣٩

(٦) جأروا إليه : رفعوا أصواتهم بالدّعاء وتضرّعوا.

(٧) الفصلان بضمّ الفاء وكسرها جمع الفصيل وهو ولد النّاقة.

(٨) السّخال بكسر السّين جمع السّخلة بفتح السّين ولد الغنم.

(٩) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩١

قال الله تعالى [1]: ﴿ فلولا كانت قريةٌ آمنَتْ فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخِزْي في الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين﴾.

وهذه القصّة مذكورة ههنا وفي سورة الصّافّات وفي سورة ن [2] جاء في سورة الصّافّات [3] قول الحق جلّ وعلا ﴿وإنّ يونس لمن المرسلين . إذ أَبَقَ [4] إلى الفلك المشحون. فساهم [5] فكان من المدحضين [6] فالتقمه [7] الحوت وهو مليم [8] فلولا أنّه كان من المسبّحين .للبث في بطنه إلى يوم يبعثون .فنبذناه [9] بالعراء [10] وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين [11] وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتّعناهم إلى حين﴾.

وجاء في سورة ن أو القلم [12] خطاباً للمصطفى ﷺ قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فاصبر لحكم ربّك ولاتكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم .لولا أن تداركه نعمةٌ من ربّه لنُبِذَ بالعراء وهو مذموم .فاجتباه ربّه فجعله من الصّالحين﴾.

---

(١) سورة يونس ٩٨

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩١

(٣) الآيات ١٣٩-١٤٨

(٤) أبق : هرب

(٥) فساهم : فقارع أهل السّفينة.

(٦) من المدحضين : من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر.

(٧) فالتقمه : فابتلعه.

(٨) وهو مليم :آتٍ بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر وركوبه السفينة بلا إذن من ربّه.

(٩) فنبذناه: ألقيناه من بطن الحوت.

(١٠) بالعراء: بوجه الأرض أي بالسّاحل. الجلالين.

(١١) اليقطين: ما لاساق له من النّبات كالقثّاء والبطّيخ وغلب على القرع: المعجم الوسيط :«قطن».

(١٢) الآيات ٤٨- ٥٠

ومن لطيف الموافقات أنّ سورة القلم الّتي ذكر عزّ وجلّ فيها يونس عليه السّلام أو ذا النون تسمّى سورة ن أحد حروف الهجاء ، وأنّ النّون بمعنى الحوت العظيم .وسمي يونس ذا النون في قوله :﴿وذا النون﴾ لأنّ النّون كان قد التقمه(١) بمعنى الحوت العظيم.

إذ ذهب مغاضباً: عن ابن عبّاس : غضب على قومه (٢)

فظنّ أن لن نقدر عليه : فظنّ أنّ لن نعاقبه بالتضييق عليه ، من قولهم : قَدَرْتُ على فلان إذا ضيّقت عليه ، كما قال الله جلّ ثناؤه (٣) : ﴿ومَنْ قُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ (٤) .

فنادى في الظمات : ظلمة اللّيل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت(٥).

ونجّيناه من الغمّ: ونجّيناه من الغمّ الّذي كان فيه بحبسناه في بطن الحوت وغمّه بخطيئته وذنبه (٦).

يخاطب السّياق المصطفى ﷺ ويقول له : واذكر يامحمّد لقومك ذا النّون ، وصاحب الحوت العظيم ، يونُس بن مَتَّى عليه الصّلاة والسّلام الذي أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى بالموصل في العراق حين غضب على قومه فذهب عنهم وفارقهم بدون إذنٍ من ربّه عزّ وجلّ . وإنّما غضب عليه السّلام على قومه لأنّهم أصرّوا على تكذيبه فأنذرهم وقوع العذاب بهم ، وغادرهم واتجّهه إلى البحر وركب السفينه باجتهاد شخصي منه وليس بوحي من ربّه عزّ وجلّ . لقد ظنّ

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني :«نون» ٥١٠

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٦١

(٣) سورة الطلاق ٧

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٢

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٤

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٥

يونس عليه السّلام أنّ الله سبحانه وتعالى لن يعاقبه فيضيّق عليه لأنّ قومه المصرّين على تكذيبه يستحقّون العذاب الّذي أنذرهم بوقوعه ، ويستحقّون أن يفارقهم.

إنّ الله سبحانه وتعالى عاقب يونس عليه السّلام، فقد هاج البحر وماج وتقاذفت بالسفينة الأمواج، وكان عليهم أنّ يتخفّفوا من الحمل الثقيل للسّفينه بإلقاء واحدٍ من ركّابها في البحر بناءً على القرعة . لقد ساهم يونس عليه السّلام وقارع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر . وأرسل الله تعالى حوتاً كبيراً ابتلع يونس عليه السّلام فكان في ظلمات ثلاث، ظلمة بطن الحوت ، وظلمة اللّيل ، وظلمة البحر . لقد نادى يونس عليه السّلام في تلك الظلمات ربّه عزّ وجلّ الّذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء فقال: لا إله إلاّ أنت ولامعبود بحقّ سواك ياألله تنزيهاً لك عن كلّ ما ألحقه الظالمون بك ممّا لايليق بجلالك وعظمتك ، إنّي كنت من الظّالمين حيث عصيتك وقمت بدون أمرٍ منك بمفارقة قومي والاتجّاه إلى البحر وركوب السفينة غضباً على قومي المصرّين على الإشراك بك وتكذيب رسولك.

إنّ الله سبّحانه وتعالى قد استجاب ليونس عليه السّلام الّذي أخلص الدعاء لله تعالى وهو في بطن الحوت ، ونجّاه عزّ وجلّ من الغمّ الّذي كان فيه بسبب المعصية والظّلمات الّتي كان فيها.

وإنّ الله سبّحانه وتعالى كما أنجى يونس عليه السّلام من الغمّ الّذي كان فيه ينجي كلّ مؤمن يخلص الدعاء لله تعالى من كلّ غمّ ومن كلّ كرب. وقد قال عزّ من قائل (١) : ﴿وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم .إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين﴾. وقال تعالى (٢) :﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾.

---

(١) سورة غافر ٦٠

(٢) سورة البقرة ١٨٦

وبعد أنّ نجّى الله تعالى يونس عليه السّلام وعافاه أرسله عزّ وجلّ مرّةً أخرى إلى قومٍ عددهم مائة ألف أو يزيدون . لقد آمن القوم فمتّعهم الله تعالى إلى حين ثمّ قبضهم عزّ وجلّ إلى جواره.

وَزَكَرِيَّآ
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا
لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ
وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

وزكريّا إذ نادى ربّه : واذكر يامحمّد زكريّا حين نادى ربّه (١).

ربّ لاتذرني فرداً : وحيداً لا ولد لي ولاعقب (٢).

وأنت خير الوارثين : ثناءٌ مناسبٌ للمسألة (٣).

وأصلحنا له زوجه : اختلف أهل التأويل في معنى الصّلاح ، فقال بعضهم: كانت عقيماً فأصلحها بأن جعلها ولودا . وقال آخرون: كانت سيّئة الخلق فأصلحها الله له بأنّ رزقها حسن الخلق (٤) .

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٦

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٦

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٣

(٤) انظر تفسير الطّبري ١٧/ ٦٦

عن عطاء: كان في لسانها طولٌ فأصحلها الله ، وفي رواية كان في خلقها شيءٌ فأصلحها الله ، وهكذا قال محمّد بن كعب والسّدّي (١) .

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال : إنّ الله أصلح لزكريّا زوجه كما أخبر تعالى ذكره بأن جعلها ولوداً حسنة الخلق، لأنّ كلّ ذلك من معاني إصلاحه إياها ، ولم يخصّص الله جلّ ثناؤه بذلك بعضاً دون بعض في كتابه ولا على لسان رسوله ولا وضع على خصوص ذلك دلالة. فهو على العموم ما لم يأت ما يجب التّسليم له بأنّ ذلك مرادٌ به بعضٌ دون بعض (٢) .

إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات : إنّ الّذين سمّيناهم ، يعنى زكريّا وزوجه ويحيى كانوا يسارعون في الخيرات ، في طاعتنا والعمل بما يقرّبهم إلينا (٣) .

ويدعوننا : ويعبدوننا (٤)

رَغَبا ورهَبا: كانوا يعبدونه رغبةً منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله. ورهَباً ، يعنى رهبةً منهم من عذابه وعقابه بتركهم عبادته وركوبهم معصيته(٥).

وكانوا لنا خاشعين : وكانوا لنا متواضعين متذلّلين ولا يستكبرون عن عبادتنا ودعائنا (٦) .

يأمر السّياق المصطفى ﷺ أنّ يذكر لقومه زكريّا عليه السّلام الّذي كان من

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٣

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٦

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٦

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٦

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٦

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٧

ذرية سليمان بن داود عليهما السّلام [1] والّذي كان كلّما دخل على مريم البتول المحراب وجد عندها رزقا ، وكلّما سألها عن مصدر ذلك الرّزق : ﴿قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [2] فشجّعه فضل الله تعالى على مريم البتول أن يسأل الله تعالى من فضله الذرّيّة الصّالحة من صلبه. وإنّما دعا زكريّا ربّه عزّ وجلّ ألاّ يتركه وحيداً من الولد والذّرّيّة لأنّه خشي على الدّين ألاّ يقوم مواليه وأقرباؤه على شئونه كما ينبغي .وكما دعا زكريّا عليه السّلام ربّه جلّ وعلا الذّرّيّة الصّالحة من صلبه أثنى عليه عزّ وجلّ بما هو أهله فالله تعالى هو خير الوارثين ، سواء كان ثمّة ولد أو لم يكن ثمّة ولد ، وسواء كان الولد صالحاً بل نبيّاً كيحيى بن زكريّا عليهما السّلام أو كان غير ذلك . إنّ الله تعالى هو دائماً وأبداً خير الوارثين . ومعروف ان الدّنيا لاقيمة لها عند هؤلاء المصطفين الأخيار ، وليس سؤال زكريّا عليه السّلام الذّرّيّة من صلبه إلاّ تعبيراً عن اهتمامه بالدّين وحده.

ومن الآيات الكريمات الّتي تحدّثت في شأن زكريّا ويحيى عليهما السّلام الآيات الكريمات ٢-١٥ من سورة مريم .والآيات الكريمات ٣٧-٤١ من سورة آل عمران. جاء في سورة آل عمران (٣) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿فتقبّلها ربّها بقَبول حَسَنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها زكريّا كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لي من لدنك ذرّيّةً طيبة .إنّك سميع الدعاء.فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلّى في المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من الله وسيّدا وحصوراً ونبيّاً من الصّالحين .قال ربّ أنّى يكون لي غلامٌ

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٩٨

(٢) سورة آل عمران ٣٧

(٣) سورة آل عمران ٣٧-٤١

وقد بلغني الكبرُ وامرأتي عاقر. قال كذلك الله يفعل ما يشاء. قال ربّ اجعل لي آية. قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاثة أيّامٍ إلاّ رمزا. واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار﴾.

وبشأن القول : ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾ يصحّ والله تعالى أعلم أن يكون المعنى : فاستجبنا لزكريّا دعاءه ، ووهبنا له يحيى بن زكريّا عليهما السّلام من زوجه العاقر ، وبذلك تكون هذه الزوجة قد أصلحها الله تعالى وهيّأها للإنجاب بعد أنّ كانت عقيما ، وهذا الإصلاح مفهومٌ ضمناً. وهنالك إصلاحٌ من نوع آخر أشار إليه قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ والمعنى أصلح الله تعالى لسانها الّذي كان فيه طول وطبعها الّذي كان فيه حِدّة.

والّذي يجعلنا نميل إلى القول بأنّ إصلاح الزوجة الّذي نصّت عليه الآية الكريمة لايراد به إصلاحها للإنجاب أنّ هذا النّوع من الإصلاح مفهومٌ ضمناً من القول :﴿ووهبنا له يحيى﴾ وهو قولٌ يسبق النّصّ في الآية الكريمة على الإصلاح. لقد دلّ تأخير القول :﴿وأصلحنا له زوجه﴾ على أنّ المراد غير الإصلاح للإنـجاب الّذي فهم ضمناً من القول السابق مباشرة :﴿ووهبنا له يحيى﴾.

وينصّ السّياق على أنّ زكريّا وزوجه وابنهما يحيى بن زكريّاً عليهما السّلام كانوا يسارعون في الخيرات ويسبقون إلى عمل ما يُرْضى الله تعالى من الطّاعات والقربات ، ويعبدون الله تعالى وحده لاشريك له ، راغبين وطامعين في رحمة الله تعالى وفضله ، خائفين ووجلين من عذاب الله تعالى وغضبه.

لقد كانوا جميعاً خاشعين لله تعالى وحده لاشريك له. والمعروف أنّ الخشية مزيجٌ من حبّ الله تعالى والخوف منه عزّ وجلّ . ومعروفٌ أنّ الرغبة وليدة الحب وأنّ الرّهبة وليدة الخوف . والحبّ والخوف هما الخشية .وهكذا يتبين التّناغم بين

القول ﴿ويدعوننا رغباً ورهبا﴾ والقول: ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ وقد تبيّن أنّ الخشية مزيج رغبة ورهبة .

وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: كان زكريّا نجّاراً .وهذه من الفضائل لقوله صلّى الله عليه وسلّم في صحيح البخاري: أفضل ما أكل الرّجل من عمل يده (١) وقُتِل زكريّا بعد قتل يحيى ابنه ، صلوات الله وسلامه عليهما. والله أعلم (٢) .

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

الّتي أحصنت فرجها : واذكر يامحمّد مريم بنت عمران الّتي حفظت ومنعت فرجها ممّا حرّم الله عليها إباحته فيه (٣) وحفظته من الفاحشة(٤) .

فنفخنا فيها من روحنا: فنفخ جبريل عليه السّلام في جيب درعها فحملت بعيسى (٥) .

آية: عبرة (٦) .

للعالمين: الإنس والجنّ والملائكة حيث ولدته من غير فحل (٧) .

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٩٨

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٩٨

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٧/ ٦٧

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٧

(٥) انظر تفسير الطّبري ١٧/ ٦٧ والجلالين

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٦٧

(٧) الجلالين

على غرار جمع الآيات الكريمات في كلٍّ من سورة آل عمران وسورة مريم بين المصطفين الأخيار زكريّا ويحيى وعيسى ابن مريم عليهم السّلام يأتي الحديث هنا عن مريم البتول وابنها عيسى عليه السّلام بجامع الجنس الواحد للمعجزة الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة. إنّ يحيى عليه السّلام قد ولد بقدرة الله تعالى من شيخٍ كبيرٍ فانٍ وامرأةٍ عجوزٍ عاقرٍ منذ شبابها . وإنّ عيسى عليه السّلام قد ولد بقدرة الله تعالى من أنثى ولاذكر ، فقد نفخ الروح الأمين جبريل عليه السّلام بأمر الله تعالى في جيب درع البتول فحملت بإذن الله تعالى بعيسى عليه السّلام.

ومن البيّن أنّ الآية في حقّ عيسى عليه السّلام بالنسبة لنا أشدّ غرابة ، علماً بأنّ الأمور كلّها سواءٌ في حقّ الذّات العليّة.

إنّ آدم عليه السّلام إذا كان الله تعالى قد خلقه من غير أبوين ، وكانت حوّاء عليها السّلام قد خلقها الله تعالى من ضِلَع آدم عليه السّلام فثمة ذكرٌ ولا أنثى ، وكنّا جميعاً قد خلقنا الله تعالى من ذكر وأنثى ، فإنّ ربّ العزّة والجلال قد خلق عيسى عليه السّلام من أنثى ولاذكر. وهكذا يكون مجيء عيسى عليه السّلام من مريم البتول الطّاهرة العفيفة غير المتزوجة آيةً عظيمةً في الدّلالة على القدرة المطلقة للذّات العليّة للعالمين من الإنس والجنّ والملائكة.

إنّ آية عيسى عليه السّلام وأمّه البتول فريدةٌ في بابها ، وهي تمثّل الصّورة الرابعة والأخيرة من الصّور الأربع الّتي خلق الله تعالى الخلق عن طريقها من لدن آدم عليه السّلام إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها.

وهذه هي بعض الآيات الكريمات من سورة آل عمران ، الّتي يتمّ فيها الجمع بين البتول وابنها عيسى عليه السّلام من ناحية ، وبين زكريّا وابنه يحيى عليهما السّلام من ناحية أخرى. قال عزّ من قائل (١) : ﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرّيّةً بعضُها من بعض. والله سميعٌ

---

(١) سورة آل عمران ٣٣-٤٢

عليم. إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرّراً فتقبل منّي إنّك أنّت السّميع العليم. فلمّا وَضَعَتْها قالت ربِّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وَضَعَتْ وليس الذّكر كالأنثى وإنّى سمّيتها مريم وإنّى أعيذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم. فتقبّلها ربّها بقبولٍ حسنٍ وأنّبتها نباتاً حَسَنا وكفّلها زكريّا. كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقا. قال يامريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك دعا ذكرّيا ربّه قال ربّ هب لي من لدنك ذّريّةً طيبةً إنّك سميع الدّعاء. فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلّى في المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدّقاً بكلّمة من الله وسيّداً وحصوراً ونبيّاً من الصّالحين. قال ربّ أنّى يكون لي غلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر. قال كذلكَ الله يفعل ما يشاء. قال ربّ اجعل لي آية. قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاثة أيام إلاّ رمزا. واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار. وإذ قالت الملائكة يامريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين﴾.

وفي الآية الكريمة الأخيرة تقول الملائكة : إنّ الله تعالى اصطفاك يامريم بسبب إخلاصك العبادة لله تعالى واجتهادك فيها وطهرك من أدنى شائبة ونقيصة ، واصطفاك على نساء العالمين ثمرة لكلّ النّعوت الّتي خصّك عزّ وجلّ بها كي تكوني والدة عيسى عليه السّلام من دون نساء العالمين. والله أعلم (١) .

ومعروفٌ أنّ عيسى عليه السّلام أحد أولى العزم من الرسل الخمسة ، وبالحديث عنه عليه السّلام وعن أمّه البتول ينتهى الحديث عن هذه الكوكبة من المصطفين الأخيار في السّورة الكريمة.

---

(١) انظر هنا التفسير البسيط ٣/ ٢٨١ و٢٨٢